محكمة..!

الجراح بين المشرط.. والتهمة بالتقصير..!!

<،، بمناسبة أو بدونها، ما أن يجتمع اثنان أو أكثر وجاءت كلمة صحة إلا وفتح كل واحد منهم ملفاً واسعاً من الشكاوى من الأطباء، وإن منحت أحدهم قلماً فلن يتردد في تأليف كتاب عن تجارب مريرة عاشها في المستشفى أو عايشها سواه وأوصلها إليها..

أصبح هذا روتيناً اجتماعياً ويقترب أن يكون تقليداً وعرفاً نتوارثه وسببت عدداً من الأخطاء والممارسات والإشاعات الطبية التي يكون الطبيب أحد أطرافها ولا يجد مساحات للدفاع عن نفسه في محكمة مترامية الأطراف لا يصل فيها صوت دفاع المتهم..

إلا أن أحد الأطباء تمالكته الشجاعة وواجه المجتمع وأعلن مستشهداً بقصص حدثت معه خلال رحلته العملية أن المرضى أيضاً يخطئون ويرتكبون مآسي في حق أنفسهم ثم يبحثون عن الحلقة الأضعف ليلقون اللوم عليه وهو الطبيب وقد جمع الدكتور/محمد أحمد عمر رؤيته ونماذجه وأدلته في إصدار سماه (الجراح بين المشرط والدم) فهل كان محقاً فيما ذهب إليه أم أنه اختار أفضل وسيلة للدفاع وهي الهجوم..

تحقيق/ صقر الصنيدي

بداية العمل الجراحي

شاءت الأقدار كما يقول د/ محمد أن يتجه للعمل في محافظة ذمار وهي إحدى المحافظات التي تحتاج إلى جراحين يتعاملون مع الحالات الصعبة الناتجة عن إطلاق النار المباشر والمرتجع، وهناك عاصر ما تبقى من المشروع الهولندي الذي كان يشغل المجمع الطبي، ومع الأطباء الهولنديين عاش تجاربه العديدة التي أورد منها ما تذكر وبدأ عمله في العام١٩٨٩ م وإلى الآن ما زال يمارس عمله كجراح..

يأسف الدكتور/محمد أحمد عمر لذلك الرجل الذي يأتي إليه بصحبة زوجته وعلى عجلة يريد ورشتة علاج وتكون المريضة بحاجة إلى وضعها تحت الملاحظة وإجراء الفحوصات الطبية أو صور الأشعة كي يتم التشخيص الدقيق غير أن زوجها يقول بكل برود (يا دكتور المريضة لا تحتاج إلى ذلك، أكتب لها رشده علاج فقط) وهذا معناه وجود الاستهتار ..

– نماذج كثيرة مثل هذا الرجل يريد الطبيب أن يعلمنا أنها تعيق العمل الطبي بينما حالات أخرى تساعد الطبيب وتجعله يؤدي رسالته جيداً »كم احترم الفلاح المتواضع صاحب الإحساس المرهف الذي يأتي بزوجته إلى الطبيب وهو يحمل همومها رغم البؤس وظروف الريف القاسية ويضع كل ما لديه في سبيل إخراجها من محنة المرض مهما تكلف وهو ما يجعلنا نتعاطف معه ونبذل جهداً كبيراً في سبيل شفائها« ..

ثم يفسر أن المآسي تنعكس على الجراح بصورة سلبية من جميع النواحي النفسية والعلمية والمادية فتجعله يعيش حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار لما أصاب المجتمع لأن الجراح إنسان يلامس الحياة ويشعر بما يعانيه الناس.

مرافقو المريض مسئولون

وفي محطة أخرى يستعين الطبيب محمد عمر بنموذج يثبت فيه أن مرافق المريض قد يكون هو سبب تدهور الحالة المرضية وليس الطبيب فقد وصل إليه أحدهم مع زوجته وهي في حالة نزيف داخلي »حمل خارج الرحم« وتم الكشف عن الحالة وأتضح أنها بحاجة إلى رقود في المستشفى والمراقبة إذا كان هناك حاجة للجراحة ، لكن الزوج رفض وأعادها إلى المنزل وفي اليوم التالي ذهب بها إلى طبيب آخر قام بفحصها سريعاً وأخبره أنها بحاجة إلى متخصص باطنية وأن عليه أن يسافر بها إلى العاصمة وهناك كتب لها الطبيب علاجاً للملاريا استناداً إلى تشخيص أولي .. زاد تدهور الحالة إلى أن عجزت عن الحركة وفي اليوم الثالث أوصلها إلينا مجدداً بعد الرحلة الطويلة وبعد فتح البطن أتضح وجود كميات هائلة من الدم المتجلط منذ ثلاثة أيام وقتها غضبت وطلبت من الفريق الطبي إدخال الزوج إلى غرفة العمليات ليرى بنفسه نتيجة استهتاره وجعلته يشاهد إجراء العملية لأنه تسبب في تدهور حالة زوجته..

■ د. محمد عمر:
بعض الدعاوى المرفوعة ضد الأطباء كيدية

ويصف عمر هذه الحادثة بأنها واحدة من النماذج التي تؤكد مساهمة مرافقي المريض في تدهور الحالات وأن ترددهم يكون مسئولاً عن سوء الحالة المرضية..

يصل المريض ومعه مرافقوه وهم في تردد غير قادرين على اتخاذ الموقف السليم الذي يسمح للجراح بالتدخل الفوري ويزيدونه خوفاً وهم يهددونه »إذا جرى به شيء برأسكم « أي أنتم بديل عنه ومع ذلك نضبط أعصابنا ونعمل في ظل التوتر والخوف ونعيش اللحظات الحاسمة مع مرضانا وهم بين الحياة والموت..

ومن بين الأمثلة التي يوردها عمر لإثبات تدخل مرافقي المريض أنه تم إيصال مريض اتضح من خلال التشخيص أنه يعاني من التهاب الزائدة الدودية الحادة وبعد أن يتم تحضير المريض للعملية يرفض أقاربه ويأخذونه إلى مستشفى آخر ووجدوا طبيباً لم يجر له أي فحص دقيق وكتب له علاجاً وعادوا به إلى المنزل ويستخدم العلاج ليومين ويحدث لديه تدهور ويدخل المريض في مضاعفات التهاب الغشاء البيريقوني أو انفجار الزائدة الدودية ويأتي المريض وقد أصبح في وضع مأساوي ويزداد جهدنا لإنقاذه ويصمت المرافقون بعد أن تسببوا في مشاكل صحية جديدة..

جحود

ويلجأ الدكتور/ عمر إلى تسمية أحد أبوابه متسائلاً: عندما يكون الجحود قاسياً مع الطبيب والجراح ويقول فيه إن الأطباء من مختلف تخصصاتهم يعيشون ظروفاً قاهرة منذ الوهلة الأولى لعودتهم إلى بلدانهم وقد روى عودته من دراسته في بوخارست العاصمة الرومانية تواقا لخدمة بلده ويضيف أنهم لا يجدون الاهتمام من الجهات الخاصة بهم وبحياتهم..

إلى جانب الجحود النابع من ثقافة المجتمع والتي لا ترتقى إلى احترام المهنة الطبية، ومع الأسف الطبيب في مجتمعنا لا يحظى بالتقدير أو الحقوق التي ينالها نظراؤه في أي بلد آخر ورغم أنه يقوم ببذل كل الجهد من أجل صحة مرضاه قلقاً من حدوث أي مضاعفات ويسهر الليالي لينام سواه وليس صحيحاً ما يعتقد البعض أن الطبيب يعمل فقط لكسب المال وهي إشاعة لا نقبلها..

من واقع حياة الطبيب

ولم ينس الطبيب محمد أحمد ذكر قصص من يصلوا إليه كضحايا لخلافات وثآرات ويريدون أن يعالجهم فيفعل ويبحث عن التفاصيل منهم كي يخرج بفكرة تامة عن الأسباب التي تجعله أحد شخصيات رواية يكتبها الواقع وتحرك أحداثها الحياة، ومن بين تلك القصص قيامه بعلاج مصاب برصاصة في يده اليسرى نتيجة تبادل إطلاق النار مع أخيه ولم تلتئم اليد جيداً حتى أخذ يبحث عنه للانتقام ووجده في مكان قريب من سكنه فأسرع إلى قتله انتقاماً ليده اليسرى..

وبعد عام من مرور الحادث أخذت زوجة المقتول البندقية ولحقت القاتل ولم تتوقف عن إطلاق النار إلا حين سكتت البندقية بعد أن فرغت رصاصه كاملة وتم ذلك في إحدى ليالي رمضان. ويذكر الطبيب سبب إيراده لهذه القصص أنها ترتبط بمهنته مباشرة فهو يحرص على مداوة أي جراح حتى لا يتسع بينما يأتي آخر ويدمر كل ما فعله الطبيب بقتل المريض وملاحقته..

كما حدث مع مرداس الشاب الذي أصيب في أمانة العاصمة بطلقة نارية في بطنه وبعد الإصابة أخذ يتصل بالدكتور محمد »سألته أين أنت؟ فأجاب أنه في صنعاء فقلت له: يمكنك أن تسعف نفسك إلى أقرب مستشفى لأن حالتك خطيرة وتحتاج إلى تدخل جراحي، فرد أنه لن يذهب عند أحد أنا في طريقي إليك..

حينها كانت الخامسة والنصف قبيل الغروب وعند السابعة والنصف مساء وصل وهو يعاني من نزيف شديد..

قمنا بإنعاشه وإمداده بالسوائل عبر الوريد وتم تحضير الدم

وأجرينا له العملية الجراحية التي بدأت بإيقاف النزيف واستئصال جزئي للأمعاء الرفيعة ومفاغرتها واستئصال الكلى اليسرى وخياطة الثقوب في الأمعاء وغسل التجويف البطني..

بعد خروجه من صالة العمليات كانت حالته مستقرة وبعد يوم جاءت الشرطة وأجريت معه تحقيقات وشددوا الحراسة والإجراءات الأمنية حول المستشفى..

وصباح اليوم الثالث أخبرني أنه يريد الخروج من المستشفى وحذرته نظراً لخطورة وضعه والمضاعفات الناتجة عن خروجه إلا أنه وفي منتصف الليل فر مرداس بمرافقة شخصين وأقلوه إلى منطقته وانتابني القلق على تدهور حالته وبعد سبعة أيام أتصل بي يسألني عن الطريقة التي يجب أن يتصرف بها ونصحته بالتوجه إلى أقرب مستشفى في منطقته.. بعدها بساعات يتصل بي لأحد له مكان تواجدي أخبرته عن مغادرتي للعمل وأنا الآن في البقالة.. ترجاني أن انتظره وما هي إلا دقائق وكان ثلاثة يغطون وجوههم واقفين أمامي ومرداس يدخل حاملاً بيده توصيلة القسطرات فلم أجد غير أن أطلب موس من البقالة وأسرع قاطعاً الخيوط التي تثبت القسطرات »الدرينات« على البطن وأشرت إليه بالمجارحة بشاش معقم في أي مكان آخر، وقد كنت فعلاً أشعر بالقلق فالرجل مطارد من القبيلة التي تواجه معها، بعد شهر أتصل ليشكرني ويطمئنني على حالته، ولم أعرف عنه أي شيء وإن كان ما زال حياً.

استغلال الطبيب

ورداً على أولئك الذين يرفعون دعاوى بين حين وآخر ضد طبيب هنا أو هناك يقول عمر إن هذه ظاهرة سلبية برزت مؤخراً وتعبر عن جحود البعض واستغلال الطبيب الجراح عبر رفع قضية قد تكون في معظم الأحيان كيدية غرضها ابتزاز الطبيب وهي غالباً مدبرة من ضعفاء نفوس وحاقدين وتكون الجهة القضائية سائبة تحكم بما يحلو لها دون مراعاة للقانون الذي يحدد الأخطاء الطبية وهو قانون واضح يحدد المسؤوليات أثناء الخطأ، ومن الجحود أيضاً أن يؤدي التخلف بأقارب المريض إلى توجيه التهمة إلى الجراح أو من قام بالتخدير بقتل قريبهم بينما يكون قد بذل كل جهده ووجد صعوبة في الشفاء نتيجة الإصابة ، وهناك من يدفع حياته ثمن عمله ولا يجد من ينصفه قضائياً.

ما يزيد عن 22 عاماً وأنا هنا

وفي سيرته التي تمتد لما يزيد عن ٢٢ عاماً من العمل في الجراحة في ذمار المحافظة الأكبر من حيث عدد الإصابات النارية وحوادث الطرقات، يرى الدكتور محمد عمر جانباً مشرقاً في رحلته هذه هي وإن كانت شاقة وقاسية إلا أن فيها متعة للطبيب بقدر ما ينجز من عمل جراحي يتعلق بحياة الناس بقدر ما يسمو ويشعر بالارتياح النفسي ويتحول القلق والتعب والمشقة إلى سعادة وسرور خاصة عندما تتكلل العمليات بالنجاح ويخرج المريض خالياً من المضاعفات .

لقد تعلقت حياتي بالجراحة وهي المحك العملي للطبيب وعلاقتي بها قديمة تعود إلى سنواتي الأولى في كلية الطب حيث كانت مادة الجراحة تأخذني أكثر من سواها.

وفي صياغة مؤثرة يقول عمر: وها أنا ذا أقلب في ذاكرتي مختلف الحالات الطارئة المؤلمة لمن أصيبوا بحوادث مرور أو بطلقات نارية أو بالسلامح الأبيض فأنا في الأخير بشر أتألم لأجلهم جميعاً وأبذل جهدي كي يستعيدوا ما فقدوه وأتمنى أيضاً أن يتوقف الناس عن قتل بعضهم لأتفه الأسباب وأن يتجهوا جميعاً ليعيشوا في سلام.

■ طبيب يمني مخاطباً المرضى: أنتم أيضا تخطئون

■ مرضى يهربون ليلاً من المستشفى ثم يعودون بعد شهر